الفصل الثالث

الوعي المنهجي والخلل المنهجي

أهداف الفصل

1. توضيح المقصود بالوعي المنهجي وعلاقته بأشكال الوعي الأخرى.
2. بيان أهمية توفر الوعي بالمنهج والمنهجية وصور هذا الوعي عند فئات المنظرين المعاصرين للفكر الإسلامي والعمل الإسلامي.
3. رصد بعض صور الخلل المنهجي الشائعة وتمثلاتها في واقع الأمة ومجتمعاتها.

obeikan.com

obeikan.com

مقدمة

نعبر في لغتنا العادية عن الحاجة إلى الوعي السياسي، والوعي الحضاري، والوعي التنموي، والوعي المقاصدي، ... لنؤكد أننا نطلب توفر حالة من العلم والمعرفة والإدراك للواقع في جانب من جوانبه (جانب سياسي أو اقتصادي أو ثقافي)، والحاجة إلى التغيير والإصلاح فيه. وهو وصف لحالة الإنسان الواعي بذاته وبما يحيط به.

والوعي في اللغة هو الجمع والفهم والحفظ. والأذن الواعية التي ورد الحديث عنها في سورة الحاقة ليست الأذن التي أحسّت بالأصوات إحساساً مادياً، وإنما الأذن التي فهمت وعقلت ما سمعت، ثم انفعلت به وانتفعت به.[1] والرسول صلّى الله عليه وسلم دعا بالخير لمن يسمع مقالته فيعيها ثم يبلغها عنه.[2] والوعي المنهجي هو الحالة التي تعبر عن إدراك الواقع القائم ومنهج تغييره إلى الواقع المنشود.

ولا شك في أننا نستطيع أن نتبين بعض صور الوعي المنهجي وبعض تمثلات هذا الوعي عند أفراد من مثقفي الأمة، لكنَّه في كثير من الأحيان وَعيٌ جزئي، لجانب من جوانب الواقع، يستند إلى الانفعال بالتخصص العلمي أو العملي، ويقف عند حدود وصف الظاهرة، وتقدير أبعادها، ويتصف العفوية والتلقائية، لكن المنشود هو الوصول بالوعي المنهجي إلى حالة من الوعي الكلي الذي يستند إلى التدبر الهادف، وتحكمه رؤية كلية للعالم، ويُعمِل المعيار القيمي والمسؤولية الأخلاقية، ويتمدد في مساحاته، ويتعمق في درجته حتى يصبح "ثقافة منهجية حية" عامة قادرة على الإسهام في إصلاح واقع الأمة.

---

(1) ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: 12]

(2) الترمذي، أبو عيسى محمد بني عيسى بن سورة. **الجامع الصحيح**، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، بيروت: دار الكتب العلمية، كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، ج5، الحديث رقم 2657، ص33. نص الحديث: عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود يحدّث عن أبيه قال: قال: سمعت النبي صلّى الله عليه وسلم يقول: "نضّر الله امرأً سمع منا شيئاً فبلّغه كما سمع، فربّ مبلغ أوْعى من سامع." وفي رواية أخرى للرواي نفسه: "نضَّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلّغها، فرُبَّ حامل فقْهٍ إلى من هو أفْقَهُ منه..." الحديث رقم 2658 من الكتاب نفسه والباب نفسه، ص34.

وهكذا فإننا نقصد بالوعي المنهجي: الوعي على ضرورة الفهم التفصيلي، والإدراك الكلي لطبيعة الواقع ومشكلاته ومتطلباته، والتعامل معه على أساس من التخطيط المنهجي، السنني، الهادف، بعيداً عن ردود الفعل، وضغوط الحاجة العاجلة إلى القرار، ومن ثَم إدراكنا لحاجة هذا الواقع إلى الإصلاح بمنهجية صحيحة، مع الاحتكام إلى رؤية كلية للعالم، والبدء من حيث يلزم أن يكون البدء، والاستمرار في استقامة وثباث، والاستعانة بالوسائل والإمكانات المطلوبة، وبذل الجهد مع الصبر على المعاناة حتى يتحقق الهدف المنشود للإصلاح.

ونظراً لأنَّنا لم نصل إلى هذا المستوى من الوعي المنهجي، تأتي ضرورة القيام بعملية التوعية بأهمية فهم المنهج وممارسته؛ أي بناء التفكير المنهجي، والبحث المنهجي والسلوك المنهجي. ولأننا لم نتحقق بالوعي المنهجي إلى هذا المستوى، فإننا لا نزال نشاهد صوراً متعددة من الخلل المنهجي، وهو خلل في امتلاك الرؤية الكلية للعالم، وخلل في فهم الواقع وأساليب التعامل معه، وخلل في تفسير الظواهر وإدراك علاقة الأسباب بالنتائج، وغير ذلك من صور الخلل. ولكل صورة من هذه الصور تمثلات عدّة في حياتنا. وحيثما وجدنا صورة من الخلل في واقعنا، لزمت الحاجة إلى التأمل في مناهج التعامل مع الأشياء والأفكار والظواهر التي قادت إلى هذا الخلل، ومن ثم امتلاك "العدة المنهجية" اللازمة للإصلاح.

أولاً: الوعي المنهجي

إذا أرادت الأمة المسلمة أن تستعيد عزتها وترتقي إلى مبلغ أمانتها وتتصدر قافلة الحضارة، فإنه من الضروري أن يتوفر لديها الوعي المنهاجي وتتمكن من تطويره. ولما كانت المنهجية هي "علم" بيان الطريق، فإن الوعي المنهاجي ضرورة لازمة؛ لأنّ "الطريق قد يطول وتعتريه الكثير من العوارض وتتعدد فيه المنازل، فما بين المنحنيات التي قد تخرج السالك عن سبيله، وما بين المعارج التي قد ترتفع به لتفسح الآفاق، تكثر المزالق والمهلكات التي تتعثر إزاءها الخطوات، وعندها تكون المنهجية مصدراً لابتغاء الرشد."[3]

(3) أبو الفضل، منى عبد المنعم. **نحو منهاجية للتعامل مع مصادر التنظير الإسلامي: بين المقدمات والمقوّمات**، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1996م، ص8.

ويتطلب الوعي المنهجي بالضرورة وضوحاً في خطوات البناء المنهجي، وفي سبل السعي للانتقال من غاية إسلامية المعرفة ومبتغاها إلى الأخذ بالأسباب وتنفيذ البرامج، ويتطلب هذا الوضوح المطلوب قدرةً على التمييز بين عملية بناء المفاهيم وعملية بناء الأطر المرجعية للتحقق من فعالية تلك المفاهيم ولتحقيق غاية المنهجية. وقد أطلقت منى أبو الفضل على هذا التمييز مصطلح "العقدة المنهجية"[4] ثم أشارت إلى أننا لا نستطيع تجاوز هذه العقدة المنهجية وارتياد الوثبة الحضارية المرتقبة ما لم يتحقق الوعي المنهاجي اللازم للتعامل مع مصادر التنظير الإسلامية.

وأوَّل المقومات الإسلامية في هذه المنهجية ما يتعلق بمنهج التعامل مع القرآن الكريم. وتلاحظ منى أبو الفضل أنَّ النماذج التي تنطلق في تعاملها مع الخطاب القرآني من منطلق شمولي، وتلك التي تسعى لتنزيل ما تستفيده من النظرة الكلية على الواقع الاجتماعي جملة، و في مجال المعرفة المتخصصة بسنن واتجاهات هذا الواقع، على وجه الخصوص، إنما هي من القلة بمكان، ولا تزال الجهود الفردية المتفرقة لا ترقى بعد لأن تقدم الدفعة التي من شأنها أن تحدث تغييراً نوعياً في المناخ المعرفي السائد، الذي يتسم بالفوضى والتخبط والسطحية من جانب، وباستمرار فيض المؤثرات الفكرية الوافدة من جانب آخر.[5]

ولعل من المفيد في هذا المقام الإشارة باقتضاب إلى علاقة الوعي المنهجي بآليات التفكير الإنساني وصوره ومستوياته.

يقولون إن العلم -أي علم- هو بمنهجه لا بموضوعه، أو على الأقل بمنهجه وموضوعه معاً، فاكتساب العلم وحصول المعرفة والإدراك عند الإنسان "عملية" فاعلة ومنفعلة؛ إذ تتأثر منهجية الباحث بعقليته ونفسيته وسائر المؤثرات التي تشكل شخصيته، وتشترك في الوقت نفسه في صياغة الوعي العام في المجتمع وأنماطه الثقافية التي تحدِّد بدورها قضايا البحث العلمي وأولوياته ومعاييره.

(4) المرجع السابق، ص11.
(5) المرجع السابق، ص29.

وتؤثر منهجية التفكير في وعي الإنسان بالواقع؛ فعندما يفكر الإنسان ويحاول نقل الواقع كما يدركه، فإنه لا ينقل الواقع ذاته، وإنما يقترب منه بقدر ما يستخدم من منهجية مناسبة.[6] وتتعلق هذه المحاولة بنتيجة التفاعل بين ثلاثة عناصر: العنصر الأول هو المدركات القبلية المستقرة في ذهن الإنسان، وهي عادة مجموعة المبادئ والقيم التي تتصل بالفطرة، أو تأتي من النظم والظروف الاجتماعية. والعنصر الثاني هو الأدوات التي يستخدمها العقل، والعمليات العقلية والشعورية، وملكات الحدس والخيال والإرادة التي يمارسها. أمّا العنصر الثالث فهو الحقائق الموضوعية المرتبطة بالواقع؛ أي خصائصه الكمية والكيفية، وعلاقاته بما حوله. ويقوم العقل الإنساني بتنظيم هذه العناصر ضمن ما يسمى بالخبرة الإنسانية، وهذه الخبرة هي المضمون الذي يستخدمه الوعي الإنساني لفهم الواقع الطبيعي والاجتماعي، وإدراك موضوعاته وظواهره، وتفسيرها وبيان دلالاتها وإمكانات توظيفها في الفهم والسلوك.

وعي الإنسان بالواقع: هو تفاعل ثلاثة عناصر

- المدركات القبلية المستقرة في ذهن الإنسان.
- الأدوات التي يستخدمها والعمليات العقلية والشعورية وملكات الحدس.
- الحقائق الموضوعية المرتبطة بالواقع.

ومع ذلك فإنَّ وعْي الفرد الإنساني قد يكون وعياً مزيفاً؛ لأنَّ الواقع الاجتماعي وظروفه وإرغاماته يفرض على الأفراد قيوداً وشروطاً تتطلب التماهي مع الثقافة السائدة والوعي (أو اللاوعي) الجمعي، وهذه الظاهرة هي أحد أسباب الركود والتوقف عن العطاء الفكري والحضاري للمجتمعات.

(6) عارف، نصر محمد (محرر). **قضايا المنهجية في العلوم الإسلامية والاجتماعية**، أعمال مؤتمر المنهجية المنعقد في الجزائر عام 1989، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1996م، ص10.

ومع ذلك يظلُّ في كلِّ مجتمع قليلٌ من الأفراد الذين لديهم إرادة التفوق والإبداع، يمارسون الحرية في الاستقلال والتميز، فيتجاوز وَعْيُهم الوعيَ السائد عند العامّة من الناس، لأنَّهم يفهمون الواقع بصورة جديدة، وينظمون خبراتهم عنه على نحو ريادي، وقد يبشِّرون بفكر جديد، ومنهج جديد، وينشرون نوعاً جديداً من الوعي. وربما يكثر أتباعهم، وتوضع أفكارهم موضع العمل، فتتحقق النهضة ويحصل التجديد.

وقد تمثل الوعي بتخلف واقع الأمة وحاجتها إلى النهضة، في كتابات الكثيرين من دعاة الإصلاح منذ قرن ونصف، ولكن هذا الوعي بدا مرتبكاً مشتتاً، موزعاً على منهجيات أحادية قاصرة؛ فمنهم من دعا إلى منهج سلفي لحمتُه تقديسُ الماضي والثناءُ على السلف، وسداهُ القطيعة مع مناهج الغربيين وبيان عوراتِهم ومثالبِ إنجازاتهم، حتى إذا التفتوا إلى نصيبِهم من الدنيا، أرسلوا أبناءهم للتعلم على مناهج الغربيين، ولحقوا بهم للاستمتاع بمنجزات هذه المناهج، وملأوا بهذه المنجزات بيوتهم ومكاتبهم وشوارعهم. ومنهم من دعا إلى منهج حديث أعمل فيه فنون جلد الذات، والاختيار الانتقائي من التاريخ الإسلامي الذي يظهر من الوقائع والنماذج ما يجعله مسوِّغاً لهدم التاريخ كله، والقطيعة معه، أمَّا الغرب فإنَّ له من الفضل، وفيه من العبقرية، ما يؤهله للسيادة والقيادة.[7]

ولعلّ أزمة الوعي الإسلامي التي مثلتها تلك المناهج تعمقت في نفوس الكثيرين من الناس، أولاً لأنَّ دعاتها من الطرفين كانوا في أكثر الأحيان من أولي الأمر في الأمة، سواءً على مستوى الحكم أو على مستوى التوجيه. وتعمَّقت أزمة الوعي هذه نتيجة الإحباط واليأس الذي أناخ بكلكله على كثير من الناس نتيجة الهزائم العسكرية والسياسية المتتالية، وسقوط القيادات والشعارات التي كانت تمثل أفق الأمل. ولكنّ في بعض الشر خيراً أحياناً، فإنَّ الهزائم المنكرة كثيراً ما كانت عاملاً من عوامل "عودة الوعي" حتى عند من كانوا يظنُّون أنهم "قادة

(7) بكّار، عبد الكريم. **تجديد الوعي**، سلسلة الرحلة إلى الذات رقم 2. دمشق: دار القلم. 2000م، ص9–23.

الوعي" والفكر والثقافة في أمّتهم.[8]

وأخطر أشكال التزييف أو الارتباك في الوعي هو ما يتعلق بالمنهج، فإنَّ افتقاد الوعي المنهجي "يجعلنا ننحرف بالمنهاجية ووظيفتها، بل قد يتطرق بنا الأمر إلى الإطلاق على بعض منها اسم المنهج، مع أنها لا تمت لهذه التسمية بصلة؛ فالمنهاجية في حقيقتها تعدّ مصدراً لابتغاء الرشد، وتحقيق الوعي، فإذا كان المنهج هو الطريق الموصل إلى المقصد فإنه يفرض علم الطريق وبيان الوصول، وبقدر صحة منطلقاته وسلامة وجهته يكون قيامه مقام المرشد الأمين، الذي يبين معالم الطريق."[9]

وعلى أية حال فإنَّ الإحساس بالحاجة إلى المنهج والتفكير المنهجي -كما يبدو- أخذ يتزايد في نصف القرن الماضي في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، حتى أصبح المنهج هاجساً لشغل العلماء والمتخصصين في مختلف فروع المعرفة، وفي أوساط الفكر والدعوة والحركة على حد سواء. فالدعاة يقدمون دراسات منهجية في علم الدعوة[10]، ويدعون إلى سلوك منهج محدد في الدعوة هو منهج الأنبياء[11]؛ وإذا اختار أحدهم نصوصاً معينة من كتابات السلف، فإنَّه ربما يختار "الكلمات المنهجية"[12] عنواناً لكتابه؛ وإذا جمع أحدهم مجموعة من المقالات الصحفية التي سبق نشرها لتنشر في كتاب، فقد يختار "مقالات في المنهج"[13] عنواناً له... وهكذا.

(8) بعد هزيمة حزيران عام 1967م تحول عدد من المفكرين والأدباء المشهورين عن ولائهم التقليدي للأنظمة والزعماء بعد أن تبين لهم أن القيادات السياسية ضللت الجماهير، وضللت القيادات الثقافية والفكرية، حتى كأن هذه القيادات كانت تعيش حالة فقدان الوعي، وكانت الهزيمة سبباً في "**عودة الوعي**"، وهو عنوان كتاب ألّفه توفيق الحكيم ونشرته دار المعارف بالقاهرة عام 1972م، ومثله قصائد نزار قباني بعد الهزيمة المذكورة.

(9) عبد الفتاح، سيف الدين. **حول المنهجية الإسلامية: مقدمات وتطبيقات**، ورقة قدمت في دورة المنهجية الإسلامية الثالثة في المعهد العالمي للفكر الإسلامي بعمان/ الأردن، في الفترة 12-17 نوفمبر 1998م. ص4.

(10) البيانوني، محمد أبو الفتح. **المدخل إلى علم الدعوة: دراسة منهجية شاملة لتاريخ الدعوة وأصولها ومناهجها**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، 1993م.

(11) زين العابدين، محمد سرور. **منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله**، برمنجهام، بريطانيا: دار الأرقم، 1992م.

(12) الياسين، جاسم بن محمد بن مهلهل. **الكلمات المنهجية من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية**، الكويت: مؤسسة الكلمة، (د.ت.).

(13) العودة، سلمان بن فهد. **مقالات في المنهج**، آن آربر، ميشيجان: التجمع الإسلامي في أمريكا الشمالية، سلسلة رسائل التجديد رقم 2، 1999م.

إقرأ الآيات القرآنية الكريمة التي تروي قصة نبي الله إبراهيم عليه السلام في سورة الأنعام من قوله سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ ﴾ [الأنعام: 75] إلى قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢ ﴾ [الأنعام:82] وتأمل في الدلالات المنهجية لهذه القصة. وناقش إمكانية ما إذا كان يمكن أن نَعُدَّ منهجية إبراهيم عليه السلام في خطابه لقومه بحثاً عن الإله الحق -كما هي حجة الله له- ضمن هذا المعنى للمنهجية العلمية أو مناهج البحث العلمي، وما الدلالة المنهجية فيما لو حدثت القصة قبل نبوّة إبراهيم عليه السلام أو بعدها؟

وفي المجال العلمي المتخصص "الأكاديمي" يتم التحدث عن علم الأصول بوصفه منهج بحث ومعرفة،[14] وتظهر فيه الحاجة للبحث في العلم وتجديده، من أجل معالجة أزمة المنهج أو إشكالية المنهج المعاصرة. وعندما يتم الحديث عن العقيدة الإسلامية ينصرف الاهتمام إلى مناهج البحث فيها، بوصف ذلك "دراسة لمناهج الفكر الإسلامي المعاصر وللعناصر المنهجية في دراسة أصول الدين"، ذلك أن هذا الدين قد جعله الله منهاجاً مستقيماً مشتملاً على مسائل العقيدة والعبادة والأخلاق والتشريعات، وهذه العناصر في مجموعها هي التي تمثل "المنهاج الإسلامي" الذي استقام عليه الرعيل الأول، ثم خَلَف من بعدهم خُلوف جعلوا هذا المنهاج عضين؛ ما بين مسائل كلامية فلسفية، أو مشاعر وجدانية صوفية، أو عبادات تجزيئية جافة؛ الأمر الذي اقتضى ظهور المصلحين المجددين الذين عملوا على "إعادة الترابط إلى بنية

كيف يمكن لعلم الأصول أن يساعد في صياغة منهجية علمية دقيقة في التفكير؟ أعط مثالين، وعلل ذلك.

(14) العلواني، طه جابر. **أصول الفقه الإسلامي: منهج بحث ومعرفة**، هيرندن، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي. ط2، 1995م، ص7.

المنهاج الإسلامي ورفض الوضع التجزيئي." [15]

وإذا تطرق الحديث إلى المنهج العملي للإسلام بخصائصه وأركانه فسنجد مع -يوسف القرضاوي- أنه يتجسد في السنة النبوية؛ لأنها التفسير العملي للقرآن "فقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم هو القرآن مفسَّراً، والإسلام مجسَّماً... ومن واجب المسلمين أن يعرفوا هذا المنهاج النبوي المفصل بما فيه من خصائص الشمول والتكامل والتوازن والتيسير، ويعرفوا بالتالي كيف يحسنون فهم السنة والتعامل معها.." وإذا كانت "أزمة المسلمين الأولى في هذا العصر هي أزمة فكر" فإن "أوضح ما تتمثل فيه أزمة الفكر هي أزمة فهم السنة النبوية والتعامل معها، وخصوصاً في بعض تيارات الصحوة الإسلامية... فكثيراً ما أُتِيَ هؤلاء من جهة سوء فهمهم للسنة المطهرة."[16] ويرصد عبد الجبار سعيد عدداً من مظاهر الخلل في منهجية التعامل مع السنة النبوية.[17]

لكن ذلك لم يمنع بعض العلماء والباحثين في السنة النبوية أن يقرِّروا أنَّ الفكر المنهجي عند المحدثين قد تطور إلى حد كبير في وقت مبكر من تاريخ التعامل مع السنة. حتى إنَّ بعض الكتب الحديثة في منهج النقد في علوم الحديث وصل أحدها "إلى أن يكون نظرية علمية كاملة تبرز كمال العلم ودقته."[18] وأن هذا العلم يمثل "المعجزة الإسلامية في ميدان السنة". وحتى فروع هذا العلم مثل "علم اختلاف الحديث أصبح علماً كاملاً".[19]

---

(15) الزنيدي، عبد الرحمن بن زيد. **مناهج البحث في العقيدة الإسلامية في العصر الحاضر: دراسة لمناهج الفكر الإسلامي المعاصر وللعناصر المنهجية في دراسة أصول الدين**، الرياض: مركز الدراسات والإعلام، دار أشبيليا. 1998م، ص5-6.

(16) القرضاوي، يوسف. **كيف نتعامل مع السنة النبوية: معالم وضوابط**، هيرندن- الرياض: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مكتبة المؤيد، ط1، 1990م، ص23-27.

(17) سعيد، عبد الجبار. "منهجية التعامل مع السنّة النبويّة"، **إسلامية المعرفة**، س6، ع18، خريف 1999م، ص53-88.

(18) عتر، نور الدين. **منهج النقد في علوم الحديث**، دمشق: دار الفكر، ط2، 1979م، من تقريظ محمد محمد أبو شهبة للكتاب، ص8.

(19) سعيد، همام عبد الرحيم. **الفكر المنهجي عند المحدثين**، الدوحة: سلسة كتاب الأمة رقم 16، محرم 1408هـ، ص17، ص107.

ويغالي بعض الباحثين في وصف اكتمال مناهج المحدثين حتى إنهم يرون أن أحداً لو أراد "أن يزيد وجهاً واحداً في نقد السند على صنيعهم في نقد السند ... أو المتن، قد تركه المحدِّثون، مما ينبغي أن يوجد لنقد الرواية، لو أراد أحد ذلك لما استطاع."[20]

وفي الدراسات التاريخية لا تزال قضية المنهجية منذ عهد ابن خلدون حتى الآن ملتبسة على كثير ممن ولجوا عالمها متوكئين على النصوص التي نقلها الأوائل بوصفها حقائق مسلمة؛ الأمر الذي أوقع المؤرخين في أخطاء منهجية، مثلهم في ذلك مثل أولئك الذين حاولوا التخلي عن هذا المنهج إلى منهج المستشرقين الذين -وإن كان لهم بعض الفضل في جوانب محددة- انطلقوا من مصالح الاستعمار، وعقدة التفوق الغربي، فراحوا يكتبون التاريخ "من وراء الجدار الزجاجي، فلم يمسكوا بالخيوط الأساسية التي حركت أحداثه وجهلوا بالتالي خصوصية الإسلام في عالمه وزمانه الخاصين."[21]

وقضايا الفكر الإسلامي المعاصر تحتاج إلى محاولة يتكامل فيها النظر في منهجية الفكر الإسلامية بياناً للعيوب واقتراحاً للإصلاح. وقد أصبح توجيه الحوار نحو الجانب المنهجي في الفكر الإسلامي من أهم مهمات الفكر الإسلامي اليوم... "وهل أزمة المسلمين منذ زمن إلاّ أزمة منهجية تفكير في أساسها؟"[22]

وفي مجال الأدب والنقد نجد من يتحدث عن تزايد الإحساس بالوعي المنهجي حتى أصبح البحث عن المنهج الإسلامي في النقد الأدبي من القضايا التي تحتل الأولوية، بسبب عدم ملاءمة المناهج الغربية في التعامل مع التجربة الإسلامية المعاصرة في الإبداع الأدبي، ولذلك لا بد من منهج إسلامي بديل في النقد الأدبي؛ منهج يعكس شخصية المسلم وتطلعاته المنبثقة من عقيدته وتصوراته، لتحديد آفاق هذا المنهج وتجريب أدواته وتوضيح مقوماته حتى

(20) http: / /www.alminshawy.com /vb /showthread.php?t=11739
(تاريخ / 24/ 3/ 2011م)

(21) بيضون، إبراهيم. "الكتابة التاريخية الإسلامية: بين الطريقة والمنهج"، **المعهد**، مجلة ثقافية فصلية يصدرها معهد الدراسات العربية والإسلامية في لندن. س1، ع1، كانون الثاني 1999م، ص9- 15.

(22) النجار، عبد المجيد. **مباحث في منهجية الفكر الإسلامي**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992م، ص7.

تكتمل صورته. وقد أصبحت هذه الدعوة اليوم ضرورة ملحَّة أكثر من أيِّ وقت مضى؛ لأنَّ المناهج الأجنبية تزداد رسوخاً بفضل ما لها من بريق وجاذبية، وما يصاحبها من دعاية، ولأن "العالم من حولنا قد تقدم في مناهج البحث والتفكير، كما تقدم في مناهج العمل والتطبيق. ولكن كثيراً من الممارسات التي تشهدها الأمة الإسلامية توحي بأنَّها قعدت عن اللحاق بالركب والاستسلام للاستهلاك المنهجي والمادي، اعتماداً على مناهج غير نابعة من صميم حضارتها. ولا بد من دراسة هذه المناهج المستوردة، فنستفيد من إيجابياتها، التي لا تتعارض مع رؤيتنا الحضارية وتصورنا الإسلامي، وفي الوقت نفسه نسعى إلى تأصيل منهجنا المتميز الذي يأخذ ويعطي في الحدود التي تحافظ على مقوماته وخصائصه."[23]

وفي مجال النقد الأدبي والدراسات المصطلحية، يبين البوشيخي أنَّ "مشكلة المنهج هي مشكلة أمتنا الأولى، ولن يتم تحليقنا العلمي ولا الحضاري إلا بعد الاهتداء في المنهج للتي هي أقوم؛ "اهدنا الصراط المستقيم". فينبغي أن نحرص على استقامة المنهج في كل شيء، وأن يكون الجهد المبذول في تقويم المنهج مكافئاً لهذه الأهمية، وما العلم إلاّ تلك الصفة التي تقوم بالإنسان، نتيجة منهج معين في التعلم والتعليم، تجعله قادراً على علم ما لم يُعلم... ومع أنَّ الاستيعاب جزء من المنهج، فإنَّ المهم هو ما بعد ذلك، تحليل وتعليل وتركيب.[24]

وفي المجال الفكري يؤكد طه عبد الرحمن حاجة اليقظة الدينية المعاصرة في العالم الإسلامي إلى "السند الفكري"، وذلك بدعم التجربة الإيمانية بأحدث المناهج العقلية وأقواها، وتأسيسها عليها، مؤكداً أنَّ القصور في هذا الباب هو الذي جعل هذه اليقظة تنحو في اتجاهات أطمعت الخصوم في التعرض لها، والإساءة إليها، "ولو أنَّ أهل اليقظة حصّلوا ملكةً منهجيةً، عَمِلَ التغلغل في تجربة الإيمان على فتح أبوابها، لتمكّنوا من إقامة فكر إسلامي جديد يحصّن هذه اليقظة.."[25]

(23) الغزيوي، علي. **مدخل إلى المنهج الإسلامي في النقد الأدبي**، (سلسلة كتاب دعوة الحق، العدد السادس). المحمدية، المغرب: وزارة الأوقاف، 2000م.

(24) البوشيخي، الشاهد. "مشكلة المنهج في دراسة مصطلح النقد العربي القديم"، **مجلة المسلم المعاصر**، ع14، يناير-أبريل 1990م، ص55-56.

(25) عبد الرحمن، طه. **العمل الديني وتجديد العقل**، بيروت: المركز الثقافي العربي، 1997م، ص9-10.

ويرى عبد الحميد أبو سليمان أنَّ إصلاح حال الأمة لا يكون إلا عن طريق إعادة بناء الأجيال الجديدة ابتداءً من التنشئة الأسرية ومروراً بالمؤسسات التربوية، وأنَّ حلَّ معضلات التربية لا يتأتى إلا بنشأة "علم منهجي... ودراسة علمية منظمة مستمرة، دون التأملات الفكرية العشوائية المحدودة." وهي نظرة في منهجية الإصلاح والتغيير، كما هي نظرة في نشأة العلم اللازم لهذا الإصلاح –وهو التربية – وفهم هذه النشأة، وهو العلم الذي يصفه بـ"الدراسة العلمية المنظمة المستمرة"، المتميزة عن "التأملات الفكرية العشوائية المحدودة."[26]

ويرى أبو سليمان أنَّ ثمة شروطاً ثلاثة للنهضة والإصلاح، أوّلها قوة البناء النفسي والشجاعة النفسية، وثانيها سلامة منهج التفكير وتفوّقه، وثالثها وضوح الرؤية الحضارية التي تقصد عموم الخير للخلق كافّة. وعندما ينظر أبو سليمان في أثر فقدان هذه الشروط، نجده يضع منهجية التفكير في المقدمة؛ فقد "أدى الانفصام التاريخي بين القيادة الفكرية والقيادة السياسية في كيان الأمة... إلى خلل المنهج، وأدّى خلل المنهج إلى تدمير القوة النفسية وإلى فقدان الرؤية الحضارية ..."[27]

شروط النهضة والإصلاح في رأي عبد الحميد أبو سليمان:
- قوة البناء النفسي والشجاعة النفسية.
- وسلامة منهج التفكير وتفوّقه.
- ووضوح الرؤية الكونية الحضارية.

وإذا كانت قضية المنهج قضية فكرية في المقام الأول فإنَّ الاهتمام بها لم يقتصر على المفكرين والباحثين في المجال الفلسفي النظري، بل إنَّ المنظرين للحركة الإسلامية من رجال الفكر على وجه الخصوص، ومن غيرهم بوجه عام، يرون أنّ قضية المنهج "من أهمَّ القضايا الفكرية التي واجهتها الحركة

(26) أبو سليمان، عبد الحميد. **أزمة العقل المسلم**، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط3، 1994م، ص190.

(27) أبو سليمان، عبد الحميد. "معارف الوحي: المنهجية والأداء"، **إسلامية المعرفة**، السنة الأولى، العدد 3، ص 85 – 109.

obeikan.com

الإسلامية المعاصرة؛ لأنَّ علاقة المنهج بالحركة علاقة طبيعية وشيجة، فالذي يريد أن يتحرك حركة عاقلة رشيدة لا بد له أن يحدد الغاية التي يريد التحرك نحوها، والطريق الذي يسلكه لبلوغ تلك الغاية. ولأنها - كذلك - من أكثر القضايا التي ينبني عليها العمل...، ولأنَّ الخطأ في فهمها يؤدي إلى تطويل الطريق أو اعتسافه، ويؤدي -من ثمَّ- إلى دفع أثمان باهظة وفقد ضحايا غالية، وقد يؤدي إلى الخمود والركود واليأس والقنوط، وقد يؤدي إلى الفشل، إلى غير ذلك من النتائج الخطيرة على سير الحركة.."[28]

إذا أخذنا برأي الدكتور عبد الحميد أبو سليمان في الشروط الثلاثة للنهضة والإصلاح في الإطار الإسلامي، فكيف يمكن للأسرة بوصفها مؤسسة تربوية أن تحقق هذه الشروط؟

وفي رؤيته للأبعاد الغائبة عن فكر وممارسات الحركات الإسلامية المعاصرة، يجعل العلواني البعد المنهجي هو "الغائب الأول" أو "الغائب الأكبر"[29]، وهذا يستدعي -في نظره- تطوير الفهم المنهجي الكلي الذي يجمع بين القراءتين: قراءة القرآن في كليته، وقراءة الكون في كليته. فبهذه القراءة وبالتأكيد على الصيرورة، والتفاعل، والمنطق التاريخي للمتغيرات، نستطيع أن ندخل إلى عالم الكتاب الكريم بمنهجية واضحة، نتجاوز فيها ما كان من إشكالات دفعت بابن رشد مثلاً إلى كتابة "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال"، أو دفعت بالغزالي لتأليف "تهافت الفلاسفة" وردّ ابن رشد عليه في: "تهافت التهافت"، أو تحريم ابن الصلاح للمنطق، أو محاولة الاستغناء عن الحد الأوسط في المنطق وتقديم حدٍّ بديل من القرآن من أجل "درء التناقض بين النقل والعقل" في محاولات ابن تيميه.[30]

(28) شيخ إدريس، جعفر. **قضية المنهج عند سيد قطب في "معالم في الطريق"**، أعمال ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصرة في البحرين، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ص531-546.

(29) العلواني، طه جابر. **أبعاد غائبة عن فكر وممارسات الحركات الإسلامية المعاصرة**، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص63، ص74.

(30) المرجع السابق، ص75-76.

هذه نماذج من الوعي بالمنهج لدى شخصيات مختارة من فئات المنظرين في الفكر والحركة والعلم، لكن الوعي بضرورة وجود المنهج شيء وامتلاك مقوماته وعناصره شيء آخر، والوعي لدى الأفراد شيء والوعي العام الذي يشمل فئة العلماء أو فئة الدعاة، بَلْهَ المجتمع بكامله شيء آخر.

فالوعي بالمنهج ليس شعاراً جديداً فحسب، يضاف إلى الكثير مما ينقص الأمة من أجل تحقيق شهودها الحضاري، وإنَّما هو تحديد فكري وعملي لمجموعة من المتطلبات المنهجية التي يلزم الاستمرار في تداولها، وتناولها بالبحث والدراسة والنقد، حتى يُشيع "البحث في المنهج مناخاً عاماً ينشأ عليه عقل الأمة، ويشكل جوهر وعيها بالمنهج والشرعة." وقد اقترح سيف الدين عبد الفتاح أربعة عناصر ضرورية لعملية بناء الوعي المنهجي: الوعي بمصادر التنظير المنهجي الإسلامي، والوعي بالإمكانات المنهاجية الغربية المتاحة ومراجعتها، والوعي بالتطبيق المنهجي والتعامل مع مصادر التنظير الإسلامية والوعي بصعوبات التطبيق المنهجي وكيفية تجاوزها.[31]

عوامل التخلف وعوامل النهوض

- عوامل أدت إلى التخلف الحضاري للأمة.
- عوامل لا تزال تكرس الواقع المتخلف للأمة.
- عوامل أساسية في النهوض الحضاري غائبة عن واقع الأمة.

والأهم من ذلك أن ينتقل الوعي بالمنهج عند أولئك الذين يكتبون عنه إلى الممارسة العملية للمنهج في مجالات تخصصهم العلمي أو الفكري أو الدعوي.

(31) عبد الفتاح، سيف الدين. **حول المنهجية الإسلامية...**، مرجع سابق، ص5-6.

obeikan.com

ثانياً: مظاهر الخلل المنهجي في واقع الأمة

ثمة عوامل متعددة أدت إلى وصول الأمة إلى واقع التخلف الحضاري الذي تعيشه منذ عدة قرون، لكن هناك عوامل أخرى ما تزال تكرّس هذا الواقع المتخلف رغم الجهود المخلصة التي بذلها المصلحون، فضلاً عن غياب مذهل لبعض العوامل الأساسية في النهوض الحضاري المنشود.

فالشخصية الإسلامية المعاصرة سواءً على مستوى الفرد أو على مستوى الجماعة والأمة، اعترتها أشكال من الخلل عطلت قدرتها على الفعل والإنجاز والأداء. ولعل من الملائم أن نميز بعض أشكال الخلل في الجانبين الأساسيين من هذه الشخصية: الجانب العقلي أو الفكري، ويتمثل في الرؤية الكونية الكلية التي تحدد تصورات المسلمين عن الكون والحياة والإنسان. فقد اختلطت هذه الرؤية وأصابها الغبش والعجز والقصور في جوانب عدة. والجانب الآخر هو الجانب النفسي المتمثل في ضعف الإرادة والعجز عن المبادرة والافتقار إلى الجرأة والشجاعة.

> يتمثل الخلل في تكوين الشخصية الإسلامية المعاصرة في جانبين:
> 1. الجانب العقلي المتمثل في الغبش في رؤية العالم، وما ينبثق عنه من تصورات.
> 2. الجانب النفسي المتمثل في ضعف الإرادة والمبادرة.

وسيكون من المفيد تركيز النظر على أشكال الخلل في هذين الجانبين ودراستهما دراسة تحليلية عميقة. لكن هناك لوناً آخر من الخلل الذي تعاني منه جهود المسلمين على مستوى الأفراد والجماعة والأمة، وهو خلل يرتبط بجانبي الشخصية الإسلامية المذكورين، ويتمثل في طريقة تفكير المسلمين في مسائل الفهم والشعور والممارسة، فهو خلل منهجي، يتعلق بكيفية تحويل الفكرة إلى واقع أو الانتقال من القناعة الذهنية إلى الممارسة في الحياة. ولاشك في أنّ قيمة الأفكار لا تتحقق في عالم الواقع حتى يتوفر لها طريقة مناسبة تحوِّلها إلى

ممارسات عملية في واقع الحياة. وخطورة الخلل المنهجي تتمثل في تعطيل قيمة الأفكار الجيدة عندما يعجز أصحابها عن تقديمها ومعالجتها بمنهج سليم، فيخرجونها من عالم التجريد الذهني والمثل العليا، وربما لا يقتصر الخلل على هذا العجز فقط، بل قد تصاغ الأفكار صياغة مغلوطة، تشوِّهُها، وتصدُّ الناس عن حسن استقبالها وفهمها. وثمة مظاهر لهذا الخلل المنهجي يمكن أن نميز منها[32]:

1. الخلل في رؤية العالم:

يقتضي المنهج السليم في التعامل مع أي قضية أن يُنظَر إليها ويُتعامَل معها ضمن الدائرة التي تقع فيها أو تنتمي إليها، وبوصفها عنصراً في مجموعة أشمل بينها وبين العناصر الأخرى، من سمات الشبه والتمايز، ما يُمَكِّنُ الباحثَ من رؤية الأجزاء ضمن الكل، والكشف عن خصائص القضية من زوايا نظر مختلفة، ويبني التعامل معها مع تقدير صحيح للآثار المترتبة على هذا التعامل.

وتستدعي رؤيةُ العالم الإسلامية خاصيةَ الشمول في منهج التعامل مع أي قضية؛ الأمر الذي يسهم في جمع عالم الشهادة مع عالم الغيب، وجوانب النفع والضرر، وواقع الحال واعتبار المآل، والواقع المحلي وما يحيط به من أبعاد والآثار العاجلة والآجلة. والخلل المنهجي في هذا السياق يقصر الأمر على جانب من القضية، وقليل من معطياتها والظاهر من أمرها. ويتمثل هذا الخلل أحياناً في البحث عن الحقيقة في حيز ضيق ومحدود من مجالات المعرفة بالاقتصار على التراث دون المستجدات، بل إنّ المنهجية الجزئية في النظر إلى التراث اقتصرت على الجانب الفقهي منه دون أن تستوعب مصادر التأسيس في الكتاب والسنة، أو على الجانب النصي منه وما يتفرع عنه دون أن تستوعب مجالات التطبيق والهداية في مسائل الكون والمادة والعمران، وقد تقتصر على مذهب من مذاهب الرأي والفقه دون المذاهب الأخرى التي تعمق الفهم، وتغنيه وتعبّر بصورة أوسع عن فهم الدين ومقاصده.

(32) النجار، عبد المجيد. **عوامل الشهود الحضاري**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1999م، ج2، ص39–71.

ويتمثل هذا الخلل أحياناً النظرة الجزئية للزمن واقتصار التقدير فيه على حيز محدود من الزمن. ومقاصد الدين لا تتحقق في أي حكم من الأحكام إلا إذا أخذ الحكمُ بالحسبان الماضي للاعتبار به، والحاضر لعلاج قضاياه، والمستقبل بما يتوقع فيه من آثار الحكم ومضاعفاته. ولعلّ أكثر ما يلفت الانتباه في هذا المجال هو ضعف الحسِّ بالمستقبل والعجز عن تقدير متطلباته في التخطيط. وليس الاجتهاد في حقيقة الأمر إلا وصلاً للزمن ببعضه؛ إذ هو استهداء بالوحي المهيمن على الزمن، لاستنباط حلول لمستجدات الحاضر، بالاستنارة باجتهادات السابقين في الماضي (لحاضرهم) وبحساب آثار حلول الحاضر على المستقبل ومستجداته.

ومن ذلك الخلل أيضاً تجزئة النظر والبحث في القضايا والمشاكل، لتقدير الأحكام فيها، وذلك خلل منهجي في التناول الفكري لتحليل القضايا والمشكلات لتقدير أحكامها وحجم أولوياتها، في ضوء معطيات الواقع وإمكاناته. فإعلاء منزلة بعض الجزئيات من الأخلاق والتصرفات والشعائر، وشدة التمسك بها، على أنها مادة للدعوة، ومقياس للعمل، في معزل عن كليات الدين ومقتضيات الدعوة والواقع، يلحق الضرر بالكليات وبالدعوة ذاتها.

وحين يشتد تمسك بعض الأفراد أو الفصائل بما تقدر أنَّه أكثر أهمية من غيره، ينتهي الأمر إلى الشقاق والاختلاف، مع أنَّ الأمر لا يعدو اختلافاً في تقدير بعض المسائل الفرعية أو الاجتهاد في بعض وسائل العمل تضيع معه مصالح أكثر أهمية من وحدة المسلمين وتضافر جهودهم لإعلاء شأن الدين ونهوض الأمة.

فهذه الاختلالات الناتجة عن فقدان الرؤية الكلية الشمولية تفضي إلى فقدان الرؤية الصحيحة، التي تقدِّرُ الأشياء بحسب أحجامها الحقيقية وترتبها بحسب أهميتها؛ فما هو جزئي صغير يُقدَّر على أنَّه كلّيّ كبير، وعندما لا يكون التقدير على أساس من المقارنة التي هي من خصائص الشمول، ينتهي الأمر إلى ضعف شديد في فقه الموازنة بين الأشياء والأوضاع، ليدرك الأهم والمهم، والضار والأكثر ضرراً، والنافع والأكثر نفعاً... وينتهي الأمر إلى ضعف شديد في فقه الأولويات الذي به ترتب الأمور بحسب أولوياتها في الأهمية وفي تحقيق مصالح الأمة.

كما ينعكس هذا النوع من الخلل المنهجي على قدرة الإنسان على فهم مبادئ الواقعية والسببية والشمولية في واقع المسلمين الفكري والعملي، ومن ثم يشكل عائقاً مهماً في سبيل الإقلاع الحضاري الإسلامي المنشود.

أعط ثلاثة أمثلة أخرى على الخلل في رؤية العالم.

2. الخلل في فهم الواقع والتعامل معه:

يتعلق ذلك بالطريقة التي يُنظر فيها إلى الواقع الطبيعي والواقع الإنساني وفهمهما. وقد يكون ذلك بإهمال اعتبار الواقع والاعتماد على التصور الذهني المجرد عن الواقع، سواءً تجريداً عقلياً على طريقة الفلسفة اليونانية وما اشتق منها، أو تجريداً روحياً على الطريقة الغنوصية وما تقود إليه. والقرآن الكريم نقل العقل الإنساني من هذا التجريد إلى فهم واقعي لواقع الكون وواقع الإنسان، فآيات الآفاق وآيات الأنفس هي صورُ الواقع ومعطياتُه التي يراها العقل الإنساني ويأخذها، بوصفها مصدراً للمعرفة والفهم والهداية. ويتمثل هذا الإهمالُ أحياناً في الزهد الديني، الذي يهمل واقع الحياة ومتطلبات الاجتماع البشري فيها، أو في الزهد الاجتماعي الذي يهمل قطاعات عريضة من الواقع الاجتماعي؛ بسبب عزلة النخبة المثقفة وترفُّعها عن هموم العامة، أو زهد في الواقع نتيجة اليأس من إمكانية إصلاحه، بتجنب قضاياه، أو مواجهة أصحابه بأفكار التكفير وممارسات العنف. وزاد الطينَ بلةً زهدُ المسلمين ليس في فهم واقعهم فحسب بل في فهم الواقع الإقليمي والدَولي المحيط بهم كذلك.

وينتهي الأمر نتيجة لهذه الأشكال والصور من إهمال الواقع إلى الجهل به والعجز عن التعامل معه نتيجة لهذا الجهل. ويلاحظ في هذا المقام كيف أنّ الغربيين قد أنجزوا حضارتهم نتيجة فهم الواقع ودراسته دراسة عميقة وشاملة استوعبت عناصره وأبعاده وتفصيلاته.

إنّ هذا الخلل المنهجي في التفكير والسلوك في شأن واقع الحياة الإسلامية والإنسانية امتد لمحاولة نقض الواقعية في الفكر والواقعية في التعامل، وهو اتجاه نفسي ينتهي عادة إلى الرفض المطلق دون اعتبار التفاصيل والمعطيات.

ومن صور الجهل بالواقع عند فئات من المسلمين التشبث بالمثال، فهؤلاء يتخيلون صورة مثالية وهمية في التاريخ الإسلامي، يستأنسون بالهروب إليها من واقعهم. ويقصرون فهمهم لمنهجية الإصلاح على محاولة استنساخ الصور الجزئية من المثال وإجرائها على الواقع، أو على منهجية الاستدعاء الآلي للمثال السلفي في كل معالجة للواقع.

تمرين:

حدد جزئية معينة من واقع العمل الإسلامي ينظر إليها أنها أمر مهم، ووضح كيف ينبغي أن ينظر إليها ضمن رؤية العالم الإسلامية.

ومن هذه الصور الجهل بأثر الواقع العالمي في تكييف فهم المسلمين لبعض مبادئ الدين، أو اكتشافهم لهذه المبادئ، وكيفيه تفعيلها في الواقع المعاصر، بعد أن كان المألوف هو النظر إليها بوصفها نصوصاً نظرية، أو أحداثاً تاريخية مؤطرة في سياق الزمان والمكان وما رافقهما من مثاليات. فكثير من جوانب فهم هذه المبادئ اليوم هو انعكاس لما يراه المسلمون في واقع غيرهم؛ فالحرية والمساواة والعدالة والشورى، أصبحت لها في الواقع المعاصر مؤسسات وتشريعات يتمنّى كثير من المسلمين لو يرونها في حياتهم في بلدانهم، ومع ذلك يظهر الخلل المنهجي في إنكار تأثير ممارسات هذه المبادئ في عالم غير المسلمين على فهم المسلمين لهذه المبادئ.[33] وهذا الخلل المنهجي يقع فيه حتى بعض العلماء المعاصرين من ذوي الشأن والمكانة

(33) رضا، محمد رشيد. "منافع الأوروبيين ومضارهم في الشرق- الاستبداد (3)، **مجلة المنار**، مج10، ع4، 1315هـ، ص279- 284. انظر على وجه التحديد ص282- 283 حين يقول: "فأعظم فائدة استفادها أهل الشرق من الأوروبيين معرفة ما يجب أن تكون عليه الحكومة واصطباغ نفوسهم بها حتى اندفعوا إلى استبدال الحكم المقيد بالشورى والشريعة بالحكم المطلق الموكول إلى إدارة الأفراد، فمنهم من نال أمله على وجه الكمال كاليابان، ومنهم من بدأ بذلك كإيران ومنهم من يجاهد في سبيل ذلك بالقلم واللسان، كمصر وتركيا... لا تقل أيها المسلم إن هذا الحكم أصل من أصول ديننا، فنحن قد استفدناه من الكتاب المبين، ومن سيرة الخلفاء الراشدين، لا من معاشرة الأوروبيين، والوقوف على حال الغربيين، فإنه لولا الاعتبار بحال هؤلاء الناس لما فكرت أنت وأمثالك بأن هذا من الإسلام، ولكان أسبق الناس إلى الدعوة إلى إقامة هذا الركن علماء الدين في الآستانة وفي مصر ومراكش، وهم الذين لا يزال أكثرهم يؤيد حكومة الأفراد الاستبدادية ..."

في نفوس المثقفين والعامة من المسلمين.[34]

ولعل إهمال واقع المسلمين كان يتعزز لدى بعض الفئات من خلل منهجي آخر، يعتمد الواقع الغربي مثالاً للنهوض والتقدم. والخلل هنا هو في صياغة برامج للإصلاح مشتقة من تلك المثالية الغربية ومنزَّلة على واقع المسلمين، بصرف النظر عن عناصر هذا الواقع والخصوصيات الثقافية والاجتماعية له. وخطورة هذا المنهج في النظر إلى سبل الإصلاح أنّ أصحابه هم أهل النفوذ والمراكز المهمة في صنع القرار، رغم محدودية القاعدة الشعبية عندهم وعزلتهم عن الجماهير. لكن هذه المثالية في النظر أشد انحرافاً منهجياً وأعمق خللاً.

أعط ثلاثة أمثلة أخرى من الخلل في فهم الواقع والتعامل معه.

3. الخلل في ربط الأسباب بالنتائج:

وفي ذلك تجاوز للقانون السببي ومفهوم السببية والوقوع في التفسيرات الخرافية والأسطورية. ويعدّ مفهوم السببية في الإسلام قانوناً طبيعياً واجتماعياً ونفسياً في نطاق التدبير الإلهي للكون وتصريفه لشؤونه، فما يحكم علاقة الإنسان بالطبيعة هي أسبابٌ يكون التمكين له فيها أو لا يكون، وهذه الأسباب هي قوانين ماضية لا تتخلّف، إلا إذا أراد الله خرقها في حالات معينة، ولغايات محدودة، لا تقع ضمن الحسبان البشري، ولا المسؤولية البشرية.

ويتمثل الخلل المنهجي في فهم الأسباب والتعامل معها بعدم الأخذ بالأسباب بحجة التوكل على الله، أو الظن بأنّ اعتماد الأسباب يطعن في العقيدة؛ لأنّ الله سبحانه هو الفاعل الوحيد، أو بالتخفف من تحمل مسؤولية النتائج، والوقوف عند حد الأخذ بالأسباب؛ لأنّ النتائج في ظنهم من فعل الله سبحانه، لا من أسبابها

(34) مثال ذلك تطور الفتوى في حكم المرأة التي تسلم ويبقى زوجها على غير الإسلام في المجتمعات الغربية. فقد كان العلماء يفتون بالحكم المدوَّن والمشهور دون البحث عن نصوص أو سوابق تاريخية. وعندما تعددت الحالات وكثرت الأسئلة توقف بعض العلماء الذين كانوا يتسرعون في الفتوى الأولى في المسألة، وذلك لقناعتهم الجديدة بوجود حَرَج يحتاج إلى مَخْرج، وأخذوا بالبحث عن سوابق من المثال التاريخي واستدعائها، وعندما اكتشفوا هذه السوابق أخذوا يسوغون الحاجة إلى فتوى جديدة من خلال الاستناد إلى مبادئ عامة في استنباط الحكم، مع أنّ اكتشاف السابقة التاريخية هو في الغالب ما قادَهم إلى اعتماد الفتوى الجديدة.

ومقدماتها، أو بإهدار البُعد الغيبي جملة في فهم الأسباب، والظن بأنّ الأسباب هي الفاعلة بذاتها في النتائج، دون أن يكون للقيوميّة الإلهية دخل في ذلك.

وهذا الخلل هو عَرَضٌ عام يعبر عن ضعف الحس السببي تجاه مظاهر الطبيعة وظواهر الاجتماع وضعف عقلية البحث العلمي المتمثلة في الخطوات المنطقية في التحليل والترتيب والتصنيف اللازم لعناصر أية مشكلة أو ظاهرة، بحيث يسهل الكشف عن حقيقة العلاقات السببية بين هذه العناصر ويكون ذلك أساساً للفهم، ومن ثم أساساً للحل والعلاج.

أعط ثلاثة أمثلة أخرى على الخلل في ربط الأسباب بالنتائج.

4. الخلل في معرفة الحقيقة والعمل ضد مقتضياتها

نضرب على هذا النوع من الخلل مثلاً واحداً يمكن أن يذكرنا بأمثلة أخرى من نوعه؛ ذلك هو التدخين الذي أصبح وباءً عمَّ معظم أنحاء العالم، وإن بدرجات متفاوتة. ليس ثمة دولة من دول العالم اليوم إلا والقائمون على أمرها يعلمون أضرار التدخين، ومع ذلك فإنَّ الدولة تقوم بنفسها بالاستثمار في هذه الصناعة، أو تسمح بإقامة المصانع لمستثمرين محليين أو أجانب، من باب حرية السوق، وطمعاً في ما سوف تجنيه الدولة من ضرائب،[35] أو ما توفره من فرص عمل. لكنَّ أصحاب القرار في كل دولة يعلمون جيداً أنَّ ما ينفق على علاج الأمراض الناتجة عن التدخين هو أضعاف الدخل الذي يتحقق من إقامة مصانع الدخان.

لقد أوضح تقرير منظمة الصحة العالمية لعام 2008م أن عدد المدخنين في العالم يزيد عن مليار ومائة مليون مدخن، أي بنسبة تصل إلى حوالي ثلث مجموع سكان العالم. وتودي آفة التدخين بحياة أعداد من الناس تزيد عمن يقتلون في جميع الحروب التي تنشب في العالم. ويشير التقرير إلى أن الدراسات

(35) الأموال التي تجمع من الضرائب تزيد بمقدار 173 ضعفاً عن الأموال التي تنفق على الحد من التدخين. وأهم الوسائل التي تتخذها الدول للحد من التدخين هي زيادة الضرائب التي وصلت في بعض الدول إلى 75 في المائة من قيمة علبة السجائر، انظر:

World Health Organization. *Who Report on the Global Tobacco Epidemic*. Geneva,– Switzerland: WHO: 2009, p. 56–62.

obeikan.com

العلمية تثبت بصورة حاسمة أن التدخين، والتعرض لدخان السجائر، يؤدي إلى حالات من الموت، وحالات من المرض، وحالات من الإعاقة.[36]

وأشار التقرير إلى أن 80 ٪ من المدخنين في العالم هم في بلدان نامية قليلة الدخل أو متوسطة الدخل. ومع أنَّ معظم دول العالم قد استجابت لدعوات منظمة الصحة العالمية في التوعية بأضرار التدخين، وأنَّ نسبة المدخنين في البلدان ذات الدخل المرتفع أخذ بالنقصان، فإنَّ النسبة المئوية للمدخنين في البلدان النامية، ولا سيما البلدان الإسلامية والعربية، آخذة في الزيادة.[37]

وأضرار التدخين لا تتوقف على الأضرار الصحية التي تحل بالمدخنين ومن حولهم من الناس، بل يضاف إليها الكلفة المالية المترتبة على شراء التبغ، التي تصل أحياناً إلى ربع دخل العائلة، وهذا الهدر الاقتصادي والتبذير لا يليق بعاقل.

الحقائق المعروفة، من أن يتبنى حكماً شرعياً في التدخين؟ وما الذي يمنع الحكومات من اتخاذ قرارات سياسية واقتصادية حازمة، لمنع إنتاج التبغ واستيراده وتناوله؟

(36) المرجع السابق، ص12.

(37) يشير تقرير منظمة الصحة العالمية المذكور إلى كثير من الحقائق عن أخطار التدخين وأنواع المواد السامة الموجود في التبغ، ويتضمن بيانات كثيرة عن مدى استجابة الدول المختلفة لتوصيات المنظمة بتوفير بيئات خالية من التدخين وبخاصة للأطفال. ومن اللافت للانتباه كيف أن معظم الدول العربية والإسلامية تبدو أقل حرصاً من غيرها من الدول على الحد من التدخين، وأن ما ينفق على التدخين في هذه الدول يزيد عما تنفقه على التعليم والصحة.

obeikan.com

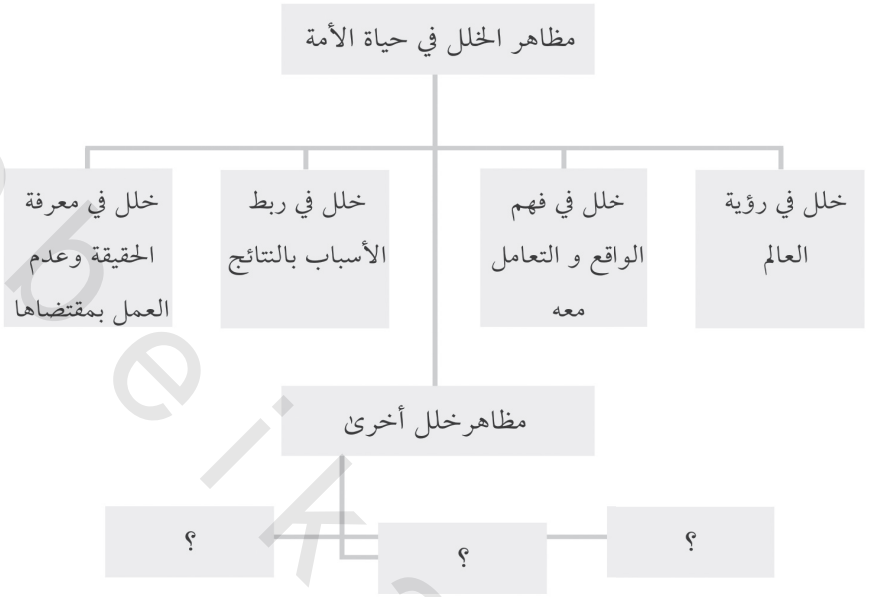

موقف تدريبي: يقسم المتدربون إلى خمس مجموعات

- المجموعة الأولى تناقش مظاهر الخلل المنهجي في فهم الواقع والتعامل معه، وتضيف ستة أمثلة على هذه المظاهر.
- والمجموعة الثانية تقوم بالأمر نفسه فيما يتعلق بمظاهر الخلل في ربط الأسباب بالنتائج.
- والمجموعة الثالثة تقوم بالأمر نفسه فيما يتعلق بمظاهر الخلل في الرؤية الكلية والشمولية.
- والمجموعة الرابعة تقوم بالأمر نفسه فيما يتعلق بمظاهر الخلل في معرفة الحقيقة وعدم العمل بمقتضاها.
- أما المجموعة الخامسة، فتقترح ثلاثة مظاهر أخرى من الخلل المنهجي غير تلك المظاهر الأربعة، وتحدد مثالين على كل منها.

obeikan.com